الجزء الرابع المجلد الثالث والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي

محرم الحرام ١٤٠٣ هـ
تشرين الأول ١٩٨٢ م

القرآن الكريم ومنهج البحث العلمي في التراث العربي

الدكتور كامل حسن البصير

عضو المجمع والاستاذ المساعد ـ كلية الآداب

الجامعة المستنصرية

ترمي هذه الدراسة الى تحليل آراء الباحثين في ظهور منهج البحث العلمي عند العرب ومناقشتهم فيما قرروه بهذا الشأن معتمدة على آيات بينات من الذكر الحكيم ، تعرضت لقضايا تتعلق بالعلم والعلماء وتشير الى البحث بشكل أو بآخر .

فالمعروف في الكتب التي وضعها مؤلفوها في البحث العلمي : أن الباحثين يمارون في تملك العرب لزمام البحث العلمي أصالة ، واستخدامهم له قديماً ؛ فقد أغفل الدكتور علي جواد الطاهر [1] الاشارة الى الأمة العربية من بين الأمم التي ابتدعت منهج البحث العلمي قديماً وحديثاً فحكى قائلاً : (ولا يمكنك أن تتصور الحضارات الاولى في العراق ومصر والصين ـ مثلاً ـ من دون منهج ومناهج . . . حتى اذا كان الاغريق كان منهج وكانت الكلمة نفسها بمعنى البحث أو النظر أو المعرفة » [2]

وذكر الدكتور عثمان أمين تأسيساً على ماتقدم :ـ ان القرن السابع عشر تميز بعناية المفكرين فيه بالمنهج أو الطريقة الواجب اتباعها في البحوث العقلية .

(١) منهج البحث الأدبي ص ١٧ ـ ط الثالثة بغداد مطبعة اسعد ١٩٧٦ .

(٢) ينظر عبدالرحمن بدوي مناهج البحث العلمي ٣ ـ ٤ ـ ١٨

والواقع ان الكتب في المنهج كثيرة في ذلك العصر ، وخصوصاً ابتداءً من سنة ١٦٢٠ : ففي ذلك التاريخ ظهر كتاب (الارجانون الجديد) لفرنسيس بيكون ويعني به المنطق الجديد Novum Organun وبعد ذلك بنحو سبع عشرة سنة نشر ديكارت (المقال في المنهج) وفي ذلك العصر ايضاً نشر (اسبينوزا) رسالته في (اصلاح الذهن) كما اصدر (تشرنهاوس) كتاب (طب العقل) ونشر فلاسفة (بول رويال) منطقهم المشهور المسمى (في التفكير) ، ونشر (مالبرانش) كتاب البحث عن الحقيقة ، وكتب لينتز مصنفاً من عدة رسائل نجد في عنوان بعضها لفظ المنهج .

ويقين ان هذين الباحثين لم يكونا يعنيان بالحضارة الأولى في العراق ومصر الجذور القديمة لحضارة الأمة العربية بمدلولها العلمي الشامل ، وآية ذلك ، انهما لم ينصا على لفظة العرب نصاً ، ولم يحللا لفظة المنهج والبحث في اللغة العربية وقد كان لهذا الموقف مردود خطير على مدى تأصيل الفكر العربي المعاصر أيضاً ، ذلك لأن منهج البحث اذا كان قد نشأ على هذا النحو حديثاً فان العرب – أمة معاصرة – ليس لها الا ان تستمد منهج بحثها من الشعوب الأوربية الوارثة للحضارة الاغريقية .

لقد حاول الدكتور أحمد جاسم النجدي أن يتدارك ذلك الاغفال فقال : (وقد قام العرب منذ بداية العصر العباسي بأعمال ثقافية وعلمية متعددة ولهذا كان من الطبيعي أن يتوصلوا خلال أعمالهم العلمية والثقافية هذه الى خطوات علمية منظمة في البحث والتأليف توجدها التجربة المستمرة والتفكير العقلي المنظم وكان من الطبيعي ايضاً ان تنمو هذه الخطوات العلمية وتتطور بمرور الزمن حتى تصبح قواعد ومبادئ مسلماً بها ،مكونة بالضرورة مانسميه في المصطلح الحديث بمنهج البحث . (٣)

(٣) منهج البحث الأدبي عند العرب ص ٥ بغداد ١٩٧٨ .

وواضح : أن هذا التدارك لم يؤتِ ثمارها كما ينبغي وذلك لسببين :—

اولهما — أنه أغفل ايضاً الاشارة الى حقب زمنية أصيلة في تاريخ الفكر العربي غطت عصر ماقبل ظهور الاسلام وعصر صدر الاسلام والعصر الاموى فهل من المنطق أن تبقى الأمة العربية صفر اليدين من منهج البحث في هذه العصور ؟ !

وثانيهما :— أن النص على العصر العباسي بداية لارهاصات منهج البحث عند العرب يفتح باب الاعتقاد على مصراعيه ليوهم أن هذا الظهور كان بعلة اتصال العرب بالأمم الاخرى ، وأنه كان ثمرة للتقليد والاقتباس وأنه لم يكن اختراعاً وابتداعاً .

وفي رأينا أن هؤلاء الباحثين العرب المعاصرين لم يذهبوا الى ماذهبوا اليه إلا وهم يغرفون بمكاييل المستشرقين الذين تعرضوا لتاريخ الفكر العربي وبحثوا شؤونه العلمية .

وآية ذلك : أن الدكتور فرانتز روزنتال قرر بهذا الصدد قائلاً : « وقد حاول مستشرقون آخرون تعايل تأخر البحث العلمي عند المسلمين ووجهة نظرهم يمثلها دوتي (Ch. M. Doughty) في كتابه (اسفار في الصحراء العربية) (Travels in Arabia Deserta) . يقول : يقول شيخ من شيوخ العرب في (العلا) كان يخاطب دوتي : (وما حاجة هذا العلم كله ؟ فلا حاجة الا لشئ واحد هو ان يعرف الانسان ان لا اله الا الله ومحمد رسول الله وما خلا هذا لاقيمة له ولا نفع . اليس من الافضل لك ان تترك هذه الأباطيل جانباً وتعتنق الاسلام فتحيا حياةً هادئة وتعمل لخير نفسك في الآخرة ؟)

أما ميلر (A. Muller) فكان يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن جمود الحياة الفكرية عند المسلمين مردّهُ الى الموقف السلبي الذي يقفونهُ من الحياة (. . . تلك العقيدة الراسخة المطلقة وذلك الايمان غير المشروط بالقضاء

والقدر الذي يقيدّ اليوم الحياة الفكرية عند المسلمين بقيود حديدية ثقيلة لم يعد من الممكن فيما يبدو التحرر منها) [٤]

فهذان المستشرقان ومن نحا منحاهما يدينان بتأخر البحث العلمي عند العرب ويلتمسان علة قصوره في الدين الاسلامي الحنيف .

وقد سعى فون كريمر في أن يتحرر من حلبة هؤلاء المستشرقين ، ويرى للعرب فضلاً في البحث العلمي فلم يستطع الا أن يقصر هذا الفضل على ميدان دون آخر عند وصفه النشاط العلمي عند المسلمين : (ان أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو لنا جلياً في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم . فانهم كانوا يبدون نشاطاً واجتهاداً عجيبين حين يلاحظون ويمحصون وحين يجمعون ويرتبون ماتعلموه من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد . ولذلك فان اسلوبهم في البحث أكبر مايكون تأثيراً عندما يكون الأمر في نطاق الرواية والوصف .

ولذا يحتل التاريخ والجغرافية المقام الأول في أدبهم . وبصفتهم اصحاب ملاحظة دقيقة ، وبصفتهم مفكرين مبدعين فانهم قد أتوا بأعمال رائعة في حقلي الرياضيات والفلك . وللسبب ذاته نجح العرب في التشريع وفي وضع قواعد اللغة من صرف ونحو في شكل شامل محكم .

ولكن من جهة ثانية نجد أنهم في حقل المعرفة النظرية والتفكير التجريدي لم يستطيعوا أن يتعدوا حدود الفلسفة الارسطو طاليسية والافلاطونية . وعندما كانوا يحاولون الخروج من اطار الفلسفة الاغريقية كان الخيال الشارد يؤدي بهم الى خيالات وأوهام وأخيراً الى نوع من الغيبية التي لاشكل لها » [٥]

ولعلنا نلاحظ مما تقدم كله ، أن الصورة التي رسمها الذين سبقونا لمنهج البحث العلمي عند العرب قديماً تقوم على أربع نتائج متلازمة :ـ

(٤) مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ص ١٦ دار الثقافة ببيروت .
(٥) المصدر السابق ص ١٥ .

أولاها : أن العرب لم يكن لهم عهد بمنهج البحث قبل ظهور الاسلام وحتى بدايات العصر العباسي الأول .

وثانيتها : ان ظهور مايشبه منهج البحث العلمي في نشاطاتهم الفكرية كان بتأثير عوامل أجنبية تأتي الترجمة من الاغريقي والروماني وسواهم في مقدمتها .

وثالثتها : ان البحث العلمي عند العرب ينافي طبيعتهم الفكرية ويتأى عن عقليتهم لما صاروا اليه من اعتناق الاسلام عقيدة ومبدأ .

ورابعتها : أن جهودهم التي بذلوها في ميادين المعرفة والثقافة والبحث العلمي لم تثمر إلا في جانبها المحسوس الضيق .

وبدهي أن هذه الصورة بنتائجها هذه تمثل ميلاً صارخاً عن الحقيقة التي كانت عليها الأمة العربية وماتمتلكها من تراث علمي وفكري زاخر كما انها تستوي غلطة تاريخية لابدّ ان تقوم في ضوء شواهد علمية لايأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

وقد رأينا ان نستند الى القرآن الكريم من بين هذه الشواهد في تلمس مصدر هذه الغلطة وعلة ذلك الميل فاذا تلك الصورة ونتائجها أكذوبة يعيش عليها باحثون ومستشرقون في وهم علمي مؤسف .

ونحن حين نعوذ بالقرآن في هذه المهمة لانرى أن العرب قبل نزول القرآن على نبيهم الكريم محمد (ص) لم يألفوا منهج البحث العلمي في حضاراتهم التي نعمت بها دولهم المبادة والقائمة ، وانما نزعم : أنهم قد عرفوه ورسخوا أسسه بشكل أو بآخر فارتفعوا به الى مستوى فكري وعقلي أهلهم لاستقبال القرآن الكريم واعتناق الدين الاسلامي الحنيف ثم السير في مناكب الأرض شرقاً وغرباً دعاة للحق ومناهضين للباطل .

وقد طوينا هذه الحقب من تاريخ الفكر العربي ووقفنا بين يدي القرآن الكريم في هذه الدراسة لما نعانيه من شحة المصادر في علمنا عن هذه الحقب

ولما يشنه المستشرقون من عداء على هذا الكتاب العزيز والدين الاسلامي الحنيف متهمين إياه بأنه علة لقصور العرب والمسلمين في البحث العلمي .
وأياً كان مجال اختيار دراستنا وعلة مساحتها بين يدي القرآن الكريم ، ينبغي أن نبين هنا حقيقة ندين بها في فهم آي الذكر الحكيم وهي تتعرض لهذا الشأن أو ذاك من شؤون العلم والفكر والحضارة والثقافة وتستوي شواهد في أيدي الذين يؤرخون لهذه الشؤون .

وهذه الحقيقة تقوم على ثلاث قواعد رئيسة :

اولاها : ان القرآن الكريم يوم يعتمد عليه في الاستدلال على علم من العلوم أو فنٍ من الفنون لايجوز أن نتخذه كتاباً في هذا الفن وذلك العلم ثم نحمله وزراً في غلط من يغلط وزلة من يزل . وانما هو كتاب هداية يحتوي بين دفتيه على قواعد عامة وينبض بمبادئ شاملة يستضيء بها قارئوه حوافز على السعي والاجتهاد في تحصيل العلم وكسب المعرفة .

وثانيتها : ان القرآن الكريم يبين في عظمته ماامتازت به العرب من مستوى فكري حين نزل بين ظهرانيهم ، إذ كان المؤمنون الرواد به عرباً كما كان المعارضون له عرباً ؛ فكان لابدّ أن يكون هؤلاء العرب على قدرٍ من الفكر ودرجةٍ من العلم حتى يقفوا منهُ هذا الموقف أو ذاك .

وثالثتها : أن القرآن الكريم قد صاغ الاطار الفكري للعرب والمسلمين وهم يتلونه في اليوم الواحد مراتٍ عديدة في صلواتهم ويتأملونه في سائر شؤون حياتهم

واذن فالقرآن الكريم الذي لايشك أحد في وصوله إلينا كما نزل على قلب النبي الأمين – خير شاهد نستطيع أن نحلل في ضوئه أسس منهج البحث العلمي في التراث العربي ونستدل به على تملك العرب لزمامه – قديماً وشيوعه بينهم اصالة وابتداعاً من غير اقتباس عن هذه الأمة أو تلك .

واذن فما هو موقف القرآن الكريم من مصطلح البحث ؟.

لم ترد في القرآن الكريم من مادة (ب . ح . ث) إلا كلمة (يبحث) مرة واحدة في حكاية قصة ابني آدم بقوله تعالى ، « واتلُ عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قرّبا قُرباناً فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال انما يتقبلُ الله من المتقين * لئن بسطت اليَّ يدك لتقتلني ماأنا بباسط يدي اليك لأقتُلك اني أخاف الله ربَّ العالمين * اني أُريدُ ان تبوء باثمي وإثمك فتكون من اصحاب النار وذلك جزاءُ الظالمين * فطوّعت له نفسهُ قتلَ أخيه فقتلهُ فأصبحَ من الخاسرين * فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريهُ كيف يُواري سوءَةَ أخيه قال ياويلتي أعجزتُ أن أكونَ مثلَ هذا الغراب فأواريَ سوءَةَ أخي فأصبحَ من النادمين * من أجل ذلكَ كتبنا على بني اسرائيل انه من قتلَ نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتلَ الناسَ جميعاً ومن أحْياها فكأنما أحيا الناسَ جميعاً ولقد جاءتهم رُسُلُنَا بالبينات ثم إنَّ كثيراً منهم بعد ذلكَ في الأرض لمسرفون » (٦)

يفصل المفسرون تلك القصة في ضوء هذه الآيات الكريمات فيرون : ان ابني آدم هما من صلبه قابيل وهابيل ، اوحى اللهُ الى آدم ان يزوج كل واحد منهما توأمة الآخر ، وكانت توأمة قابيل اجمل واسمها (اقليما) فحسد عليها أخاه وسخط ، فقال لهما آدم : قربا قرباناً ، فمن أيكما تُقبِّلَ زوّجها فقُبِلَ قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلتهُ ، فازداد قابيل حسداً وسخطاً ، وتوعد بالقتل وقتله وبقي القتيل في العراء لايدري أخوه مايصنع به ، فحمله في جراب على ظهره سنة حتي أرو ح وعكفت عليه السباع ، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر ، فحفر له بمنقاره ورجليه ثم القاه في الحفرة . فعلمهُ كيف يخفي أخاه ويدفنهُ ، فندم قابيل لما تعب فيه من حمله وتحيره في أمره ، وتبين له من عجزه ، وتلمذه للغراب .

(٦) سورة المائدة الآيات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

من أجل ذلك كتب الله على بني اسرائيل وسائر العالمين انه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتلَ الناس جميعاً . (٧)

ولو التمسنا معنى كلمة يبحث لرأينا المعجمات تذكر : ان مادة بحث دارت في اللسان العربي على معانٍ حقيقية ومجازية كثيرة : فالبحث طلبك الشيءَ في التراب وفي المثل الباحثة عن حتفها بظلفها أي المفتشة والطالبة والملتمسة والبحوث من الابل التي إذا سارت بحثت التراب بأيديها أي حفرته واثارته ورمته الى الخلف . والبحث ان تسأل عن شيءٍ ، وتستخبر . وسورة براءة كان يقال لها : البحوث سميت بذلك لأنها تبحث عن المنافقين وأسرارهم أي استثارتها وفتشت عنها .

فهذه اربعة معانٍ لهذه المادة جسدتها اربع كلمات هي الطلب والتفتيش والاثارة والسؤال ، وإذ كان المعنى الظاهري لكلمة يبحث في التراب هو الحفر والاثارة فلربما نسأل لماذا آثرت الحكمة الالهية استعمال كلمة يبحث بدلاً عن احدى مرادفاتها القريبة في الدلالة المبادرة الى الذهن ؟

وفي اعتقادنا أن كلمة يبحث القرآنية هذه تدل على أكثر من مدلولات مادتها التي سجلها المعجم العربي ، وذلك بدليلين : —

اولهما : ان القرآن الكريم قد أدارها دون سواها من الكلمات التي تؤدي عن معناها الظاهري الذي هو الحفر في التراب .

وثانيهما : هو سياق الآيات الكريمات التي وردت فيها كلمة يبحث ، فهذه الآيات الكريمات تبين بسياقها الظاهري — ومافصله المفسرون من احداثها — اربع حقائق : —

اولاها : أن هناك رجلاً وقعت له حادثة مع أبيه وأخيه في شأنٍ من شؤون حياته كان للغيب فيها أمرهُ .

(٧) تفسير الكشاف للزمخشري ص ٦٢٣ م الاول — دار الكتاب العربي بيروت — لبنان .

وثانيتها : ان هذا الرجل قد ارتكب جريمة ثم حار في كيفية إخفاء جريمته تستراً أو رأفة بقتيله .

وثالثتها : انه كان في حاجة ماسة الى من يعينه في حيرته ، ويأخذ بيده في الخروج منها .

ورابعتها : أن حكماً شرعياً وانسانياً استخلص من هذه الحادثةواصبح قانوناً ينظم العلاقات بين الناس .

وعلى هذا كله فإن العربي عندما كان يتلو تلك الآيات الكريمات ويتلقى تفسيرها يدرك مدلول كلمة يبحث الذي نوهنا بأنه أوسع من معاني مـــادة بحث المعجمية .

ومن هنا فلنا أن نقرر ، مطمئين : ان مدلول كلمة يبحث القرآني قبل الف واربعمائة عام يعني : القيام بعمل لغرض تعليمي يؤتي ثماراً محسوسة لمن يتلقى هذا العمل ويتتلمذ عليه كما أنه حافز لاستنتاج نتائج أخرى منه : فقد بحث الغراب في التراب وعلّمَ قابيل كيف يبحث فيه ويخفي سوءة أخيه ، وأتت ثمار هذا التعليم برداً وسلاماً على انسان حائر هائم وكانت هذه الحادثة بخلفيتها التأريخية ووزرها الاجتماعي مصدر تشريع في جريمـــة القتل وعقابها .

وفي ضوء هذا التحليل يمكننا أن نقرر مطمئين أيضاً : ان المدلول الإصطلاحي لكلمة البحث العامي قد وردت خطوطه العامة في القرآن الكريم وتلقاها العرب منذ نزول الوحي جيلاً عن جيل .

وعندما بزغ فجر النهضة في أوربا وأدار بعض شعوبها مصطلح (reserch) للدلالة على لون أو آخر من ألوان النشاط الفكري والعقلي في ميدان العلـــوم الانسانية والتطبيقية وشاع من هذه العلوم في دنيا العرب ، لم يجد هؤلاء العرب فراغاً في لغتهم لترجمة هذا المصطلح ، وإنما أمدهم القرآن الكريم

به فصاغوا كلمة البحث ومشتقاتها لتنهض في وجه المصطلح الأوربي وتشد الفكر العربي بتراثه الأصيل وتجعلهُ بين يدي القرآن الكريم ليغرف منه نبعاً خالداً .

وتدل على مدلوها الاصطلاحي الذي هو طلب الحقيقة وتقصيها واذاعتها بين الناس .

أما كلمة المنهج فلم ترد بصيغتها في آي الذكر الحكيم بل وردت منها صيغة منهاج في قوله تعالى : « وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومُهيمناً عليه فاحكمْ بينهم بما انزل اللهُ ولاتتبع اهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرْعةً ومنهاجاً ولو شاء اللهُ لجعلكم أمةً واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٨)

وتنقل المعجمات العربية لمادة (ن ــ ه ــ ج) التي اشتقت منها كلمة منهاج معاني منها : طريق نَهج : بين واضح ، ومنهج الطريق : وضحه والمنهاج : كالمنهج . وأنهج الطريق : وضح واستبان وصار نَهجاً واضحاً بيناً . ونهجت الطريق : أبنتُه وأوضحتُه ؛ يقال : إعْمل على مانهجته لك . ونهجت الطريق سلكته . رفلان يستنهجُ سبيل فلان أي يسلك مسلكه .

وواضح أن مشتقات هذه المادة اللغوية تدور على معاني الطريق الواضح وسلوك هذا الطريق والتقيد بمعالمه ، ولما كانت كلمة المنهاج مثل كلمة المنهج في المعنى ؛ فسرها المفسرون في تلك الآية الكريمة على أنها : (الطريق الواضح في الدين يجرون عليه) (٩)

ومع هذا فنحن نرى : أنهُ إذا كانت كثرة حروف المبنى تدل على سعة

(٨) المائدة الآية ٤٨ .
(٩) راجع الكشاف جـ ١/ ٦٤٠

المعنى فإن كلمة المنهاج اختصت بالطريق الديني الشامل في اغراضه واهدافه ، وأن كلمة المنهج تعلقت بطريق محدد الأغراض والاهداف .

ومن هنا فحينما احتاج العرب في عصرنا الحديث الى مصطلح يدل على مايتقيد به الباحث في بحثه من ضوابط وقواعد اقتبسوا من كلمة المنهاج القرآنية لفظ المنهج بمعنى الطريقة التي يسير عليها دارس ليصل الى حقيقة في موضوع من موضوعات الأدب والعلم أو قضاياهما منذالعزم على الدراسة وتحديد الموضوع ... حتى تقديمه ثمرة عمله الى المشرفين اوالناقدين والقراء (مقالا) أو (رسالة) أو كتاباً . (١٠)

أما مادة علم التي تقترن بمنهج البحث في موضوعنا فقد رددها القرآن الكريم اثنتين وتسعين وسبعمائة مرة .(١١)

فجاء تعبير « عَلِمَ » اثنتي عشرة مرة و « عَلِمْتُ » أربع مرات و « عَلِمتَ» ثلاث مرات و « عَلِمتُمْ » خمس مرات و « عَلِمتُموهُنَّ » مرة واحدة « عَلِمْتَهُ » مرة واحدة ايضاً و « عَلِمْنا » ست مرات و « عَلِمهُ » مرة واحدة و « عَلِموا » مرتين و « أعْلَمُ » احدى عشرة مرة و « تعْلَمْ » اثنتي عشرة مرة و « لتعْلَمُنَّ » اثنتي عشرة مرة أيضاً و « تعْلَمهُا » مرة واحدة و « تعْلَمُهُمْ » مرة واحدة أيضاً و « تعلموا » تسع مرات و « تعْلَمُون » ستا وخمسين مرة و « فستعْلمونَ » ثلاث مرات و « تعلَمونَهُمْ » مرة واحدة و « تعلَموهُم » مرة واحدة أيضاً و « نعْلَمُ » اثنتي عشرة مرة و « نعْلَمُهُمْ » أربع مرات و « يعْلَمُهُ » أربع مرات ايضاً و « يعْلَمُها » مرتين و « يَعْلِمَهُمْ » ثلاث مرات و « يعلموا » سبع مرات و « يعْلَمُون » خمساً وثمانين مرة و « سيَعْلَمُونَ » خمس مرات و « اعْلَمْ » اربع مرات و « اعْلَموا » سبعاً

(١٠) راجع كتاب منهج البحث الأدبي د . علي جواد الطاهر ص ٢٦

(١١) اعتمدنا في هذه الاحصائية على المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبدالباقي مطابع الشعب ١٣٧٨ هـ .

وعشرين مرة و « ليُعْلَمْ » مرة واحدة و « عَلّمَ » أربع مرات و « عَلّمْتُك» مرة واحدة و « عَلّمْتُمْ » مرة واحدة أيضاً .

و « عَلّمْتَنا » مرة واحدة و « عَلّمْتني » مرة واحدة أيضاً و « عَلّمَكَ » مرة واحدة و « عَلّمتكُمْ » ثماني مرات و « عَلّمني » مرة واحدة و «علّمَهُ» أربع مرات و « تُعَلّمن» مرة واحدة و « تعلّمُون » مرتين و « تُعلّمونَهُنَّ » مرة واحدة و « لنُعلّمَه » مرة واحدة أيضاً و «يُعَلّمان » مرة واحدة و « يُعلّمُك » مرة واحدة و « يُعلّمُكمُ » ثلاث مرات و « يُعَلّمُهُ » مرتين و « يُعَلّمُهُمْ » ثلاث مرات و « يُعلّمونَ » مرة واحدة و « عُلّمْتَ » مرة واحدة ايضاً و « عُلِّمْتُم » مرة واحدة و « عُلِّمنا » مرة واحدة و « يتعلّمونَ » مرتين و « عالم » ثلاث عشرة مرة و « العالمون » مرة واحدة و « عالمينَ » أربع مرات و « علماء » مرتين و « معْلُومُ » احدى عشرة مرة و « معلوماتٌ » مرتين و « أعلم » تسعاً واربعين مرة (اسم تفضيل) و« عليم » احدى وستين ومئة مرة ، و « علاَّمُ » أربع مرات و « العلْمُ » اثنتين وتسعين مرة و «عِلْمِه» خمس مرات و « عِلْمُها » أربع مرات و « عِلْمُهُمْ » مرة واحدة و « عِلْمي» مرة واحدة كذلك .

لقد رسخت هذه التعابير مفهوم العلم وموضوعاته في العقلية العربية التي كانت في تاريخها الطويل على مستوى غير قليل من الرقي والتقدم ، وآية ذلك أن المشركين منهم تصدوا للقرآن الكريم بصور مختلفة من التصدي .فشككوا في مصدره وزعموا ملفقين انما يعلّم الرسول (ص) رجل باليمامة يقال له الرحمن[١٢].

ولن نؤمن به أبداً فنزل قوله تعالى : « كذلك أرسلناك في أمّة قد خلت من قبلها أممٌ لتتلو عليهم الذي أَوْحينا اليك وهُمْ يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلتُ واليه متاب »[١٣] .

كما انهم كانوا على بينةٍ من جوهر القرآن فاتخذوا من اسباب المدارسة ووسائل

(١٢) السيرة النبوية لابن هشام جـ١/٣٣٢ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٥٥ هـ/١٩٣٦ م
(١٣) سورة الرعد الآية ٣٠

المنازلة ما تصوروا أنه سوف يجديهم في خصومة الرسول الكريم والكتاب العزيز وقد حُكي ان (الوليد بن المغيرة اجتمع اليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وان وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فاجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضاً ، ويردّ قولكم بعضه بعضاً ؛ فقالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فقل وأقم لنا رأياً نقول به ؛ قال : بل أنتم فقولوا أسمعْ ؛ قالوا : نقول كاهن ؛ قال لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكُهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ؛ قالوا : فنقول : مجنون ؛ قال : ما هو بمجنون

لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، قالوا : فنقول : شاعر ؛ قال : ماهو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ؛ قالوا : فنقول : ساحر ؛ قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السُّحار وسِحرهم ، فما هو بنفثهم و لا عقدهم قالوا : فما تقول ياأبا عبدشمس ؟ قال : والله إنّ لقوله لحلاوة ، وان اصله لعذْق وان فرعه لجناة وماأنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل ، وان أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وابيه ، وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحدٌ إلا حذّروه إياهُ وذكروا لهم أمرَهُ) (١٤)

فهذه الحكاية تظهر رجلاً من العرب على درجة رفيعة من الروح العلمية وبين رهط من قومه ، تأبى عليه عقليته العلمية في البحث ان يصف القرآن بشئ مما ليس منه معتمداً في ذلك على منهج علمي في الموازنة والمقارنة ثم ينتهي بهذه الموازنة والمقارنة الى بيان حقيقة القرآن الكريم .

(١٤) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ / ٢٨٤

وبالاضافة الى هذا ينتهي به – تآمره مع ذلك الرهط الى منهجٍ نفسي واجتماعي في الاعلام فيفرق عليه ذلك الرهط بين الناس الذين لم يكن إقناعهم بالامر الهين .

وتتجلى هذه العقلية العربية بسماتها العلمية لدى المهاجرين الى الحبشة أيضاً فتروي كتب السيرة أن النجاشي أرسل اليهم بعد أن جاءهُ عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة يطلبان منه ردهم الى مكة ودعاهم إليه فقال بعضهم لبعض : ماتقولون للرجل اذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ماعلمنا ، وماأمرنا به نبينا (ص) كائناً في ذلك ماهو كائن . فلما جاءوا ، وقد دعا النجاشي أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله ، سألهم فقال لهم : ماهذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ، ولا في دين أحد من هذه الملل ؟ قالت : فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب (رض) فقال له : أيها الملك ، كنّا قوماً اهل جاهلية . . . حتى بعث اللهُ الينا رسولاً منّا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ماكنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وإداء الامانة . . . فعدّد عليه امور الاسلام – فصدقناهُ وآمنا به ، واتبعناه على ماجاء به من الله . . . فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردّونا الى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وان نستحلّ ماكنا نستحلُّ من الخبائث ، فلمـــا قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحـــالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك ، واخترناك على من سواك : ورغبنا في جوارك ، ورجوْنا ان لا نظلم عندك أيها الملك . فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيٍ : فقال له جعفر : نعم ؛ فقال له النجاشي : فاقرأه عليَّ ؛ قالت : فقرأ عليه صدراً من : « كهيعص » فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت اساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ماتلا عليهم ، ثم قال

لهم النجاشي : ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا ، فلا والله لاأُسلمهم إليكما ولايكادون (١٥)

ويتجلى من هذه الحادثة ما امتاز به هؤلاء المهاجرون من شجاعة علمية كما يتجلى منها أن جعفر بن أبي طالب كان متمرساً بأساليب المحاججة والعرض العلمي والقدرة على الاقناع وحسن اختيار الشواهد مما تمكن في النهاية أن يكسب الحجاج ويتغلب على خصميه ويميل إليه من معه قلب النجاشي ورجالاته الراسخين في علوم دينهم .

ويقدم القرآن الكريم مصداق هذه الحادثة وتلك الحكاية للذين يتشككون فيهما ، وذلك في آيات منها قوله تعالى في وصف نفرٍ من العرب عرفوا بالمنافقين « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافي قلبه وهو الدّ الخصام » (١٦)

فهولاء القوم يروق قولهم ويعجب في القلب لمافيه من حسن الحديث وقوة المنطق وشدة العارضة أسر البلاغة .

ومنها قوله تعالى في وصف قوم آخرين : « فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنةٍ حداد » (١٧)

فهذه الآية الكريمة تبين موهبة هؤلاء القوم في الحديث وحدة ألسنتهم في الخصومة والمنازلة الكلامية . وأياً كان فمن يتتبع ماأداره القرآن الكريم من مادة سأل يجد أن هذا الكتاب العزيز يحث العرب على السؤال ويدعوهم الى المساءلة ، وبدهي ان المساءلة بالسؤال سبيل الباحثين الى تحديد موضوعات بحوثهم وتعين ميادينها من ذلك قوله تعالى : « وماأرسلنا من قبلك إلا رجالاً

(١٥) ينظر المصدر السابق جـ١ / ٣٥٩

(١٦) سورة البقرة الآية ٢٠٤

(١٧) جزء من الآية ١٩ من سورة الاحزاب .

نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » [١٨]

ومن تحدث عن أسباب نزول هذه الآية الكريمة ينعقد رأيهم على أن قريشاً قالت : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فقيل « وماأرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم » على ألسنة الملائكة « فاسألوا أهل الذكر » وهم أهل الكتاب ، ليعلموكم أن الله لم يبعث الى الأمم السالفة إلا بشراً .

ومن ذلك ايضاً قوله تعالى : « سلْ بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدّل نعمة الله من بعد ماجاءته فانّ الله شديدُ العقاب » [١٩]

فظاهر هذه الآية أمر للرسول الكريم أو لكل أحد بأن يَسأل بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة على أيدي أنبيائهم وهي معجزاتهم أو من آية في الكتب شاهدة على صحة دين الاسلام فهاتان الآيتان الكريمتان تبينان أن القرآن الكريم – بالاضافة الى ما أسلفنا – كان يصدع بما يوسع آفاق تفكير العرب ويحملهم على مخالطة الآخرين وينوع بين أيديهم مصادر العلم والمعرفة .

كما أن القرآن الكريم كان يعتمد على كلمة السؤال ليثبت على ألسنة المخاطبين مايريد تقريره من ذلك قوله تعالى : « ولئن سألتهُم من نزل ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولنّ اللهُ قُل الحمد لله بل أكثرهم لايعقلون » [٢٠]

ويبدو ان هذه الظاهرة العقلية التي هي من مستلزمات منهج البحث العلمي قد خلقت من العرب أمةً متسائلة لم تكتف بتلقي القرآن الكريم وتلقف ما بين دفتيه من شؤون الدنيا والآخرة وانما انبرت تسأل الرسول الكريم وتستفسر منه عن موضوعات تنوعت بين قضايا شتى : – ابرزها : السؤال عن الروح في قوله تعالى: « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » [٢١]

(١٨) سورة النحل الآية ٤٣
(١٩) سورة البقرة الآية ٢١١
(٢٠) سورة العنكبوت الآية ٦٣
(٢١) سورة الأسراء الآية ٨٥

والسؤال عن يوم الدين في قوله تعالى : « يسألون ايّان يومُ الدين » (٢٢).
والسؤال عن الساعة في قوله تعال : « يسألُك الناسُ عن الساعة قل انما عامها عند الله وما يُدريك لعل الساعة تكون قريباً »(٢٣) .

والسؤال عن المظاهر الطبيعية كما في قوله تعالى : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفُها ربي نسفاً » (٢٤) .

والسؤال عن الفلك والتقويم في قوله تعالى : « يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيتُ للناس والحج » (٢٥) .

والسؤال عن الاشهر وما يجري فيها من شؤون اجتماعية واقتصادية كما في قوله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتالٌ فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج اهله منه اكبر عند الله والفتنة اكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والآخرة واولئك اصحاب النار هُمْ فيها خالدون » (٣٦) .

والسؤال عن مسائل تاريخية كما في قوله تعالى : « ويسألونك عن ذي القرنين قلْ سأتلوا عليكم منهُ ذكراً » (٢٧)

وواضح من هذه الآيات الكريمات أن قضايا تلك الاسئلة وموضوعاتها لاتدع مجالاً للشك في قدرة العرب على خوض المسائل الغيبية والتباحث حول المشكلات العقلية وتتبع مظاهر الطبيعة والكون وتقصي أخبار الأمم وتاريخها ، ومن هنا لابدَّ ان نعجب من أولئك المستشرقين الذين مرَّ بنا زعمهم : أن العرب

(٢٢) سورة الذاريات الآية ١٢
(٢٣) سورة الاحزاب الآية ٦٣
(٢٤) سورة طه الآية ١٠٥
(٢٥) سورة البقرة الآية ١٨٩
(٢٦) سورة البقرة ٢١٧
(٢٧) سورة الكهف الآية ٨٣

أمةٌ لم تنبغ إلا في المحسوسات ولم تخض الا في الأمور المادية مقهورين عن استجلاء الكليات من المباحث العقلية وشؤون ماوراء الطبيعة .

فهذا الزعم – بلا ريب – لايثبت أمام هاتيك الآيات البينات التي لايأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها ، كما أن أولئك الباحثين العرب والمستشرقين الذين انكروا معرفة العرب بالبحث العلمي ومنهجه في الدراسة لايحيوون جواباً حينما نواجههم بآي الذكر الحكيم التي تقدم في مواضع عدة من القرآن الكريم صورة منهج البحث العلمي متكاملاً في موضوعاته وأدواته واسسه وأساليبه :

أما الموضوعات فقد أثارت آي الذكر الحكيم منها علوماً تطبيقية ونظرية وانسانية مثل علم الأجنة في قوله تعالى : –

« ولقد خلقنا الانسان من سلالةٍ من طين * ثم جعلناه نطفة في قرارٍ مكين * ثم خلقنا النُّطفةَ علقةً فخلقنا العلقةَ مضغة فخلقنا المضغةَ عظاماً فكسونا العظامَ لحماً ثم أنشأناهُ خلقاً آخر فتبارك اللهُ احسنُ الخالقين » (٢٨)

فهذه الآية الكريمة قد نبهت اذهان المسلمين – منذ نزولها – على تتبع مراحل تكون الانسان وولادته ، ففهم العلماء منهم معناها على ان : السلالة هي الخلاصة لأنها تسلّ من بين الكدر ، وعن الحسن : أنها ماء بين ظهراني الطين . ومعنى جعلنا الانسان نطفة أنه خلق جوهر الانسان أولاً طيناً ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة والقرار المستقر والمراد الرحم ثم تحولت النطفة علقة وخلقت العلقة مضغة ثم أصبحت المضغة عظاماً فكسيت لحماً وبعد ذلك أنشأهُ الله تعالى خلقاً آخر متبايناً أي تباين اذ جعله تعالى حيواناً وكان جماداً ، وناطقاً وكان ابكم وسميعاً وكان أصم ، وبصيراً وكان اكمه وأودع باطنه وظاهرهُ – بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه – عجائب فطرة وغرائب حكمة لاتدرك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح كما أنها حملت العلماء المعاصرين الذين أولعوا

(٢٨) سورة المؤمنون الآيات ١٢ – ١٣ – ١٤

بتلمس العلوم الحديثة في القرآن الكريم على الموازنة بينها وبين ما انتهت إليه هذه العلوم في دراسة الجنين منذ أول مراحل تكونه ونشأته فاستنتجوا أن هذا الكتاب العزيز قد سبق أصحاب هذه العلوم في هذا الميدان من ميادين المعرفة الانسانيـــة .

ومن تلك الموضوعات علم البصريات كما أشار اليه قوله تعالى :- « الم تر الى ربك كيف مدّ الظّل ولو شاء لجعلهُ ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً » (٢٩)

فقد التقى فكر المسلمين القدامى بهذه الآية الكريمة فانبعث فيه حب معرفة الظل وأسرار تكونه وعلاقته بالشمس إذ شرح له المفسرون منطوق هذه الآية على أن معنى مدّ الظل : أن جعله يمتدّ وينبسط فينتفع به الناس (ولو شاء لجعله ساكناً) أي لاصقـــاً بأصل كل مظـــل من جبـــل وبناء وشجرة ، غير منبسط فلم ينتفع به أحد : سمى انبساط الظل وامتداده تحركاً منه وعدم ذلك سكوناً . ومعنى كون الشمس دليلاً : أنّ الناس يستدلون بالشمس وبأحوالها في مسيرها على أحوال الظل ، من كونه ثابتاً في مكان زائلاً ومتسعاً ومتقلصاً فيبنون حاجتهم الى الظل واستغناءهم عنه حساب ذلك ومنها مصطلح الحساب الذي تكرر في آيات بينات (٣٠) كقوله تعالى : « هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدرهُ منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخـــلق الله ذلك إلا بالحق يفصلُ الآيات لقوم يعلمون » (٣١)

ومنها علم الفلك في قوله تعالى : « الم تر أن الله يولجُ الليلَ في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كلٌ يجري الى أجل مسمّى

(٢٩) سورة الفرقان الآية ٤٥

(٣٠ تنظر سورة آل عمران الآية ١٩٩ وسورة البقرة الآية ٢٠٢ وسورة الاسراء الآية ١٢ .

(٣١) سورة يونس الآية ٥

وان الله بما تعملون خبير » (٣٢)

ومنها علم الملاحة ومايتعلق به من علم الأنواء كما في قوله تعالى : « الم تر ان الله سخر لكم مافي الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه انّ الله بالناس لرؤفٌ رحيم » (٣٣)وقوله تعالى: « الم تر ان الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إنّ في ذلك لآيات لكل صبّار شكور »(٣٤) ومنها علم الزراعة كقوله تعالى : « الم تر ان الله انزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة ان الله لطيف خبير » (٣٥) .

ومنها علم التاريخ واحوال الأمم ووقائع الاحداث كقوله تعالى : « الم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد* وثمودَ الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذي الأوتاد * الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصبّ عليهم ربك سوط عذاب » (٣٦)

فهذه الآيات الكريمات ومثيلاتها قد حفزت الرواة والمؤرخين على تلمس تواريخ هاتيك الأمم وتلقف عنهم المفسرون ماأدلوا به فراحوا يقررون بين يديها أنه قيل لعقب عاد بن عوص بن إرم ابن سام بن نوح عاد ، كما يقال لنبي هاشم : هاشم . ثم قيل للأولين منهم عاد الأولى وإرم ، تسمية لهم باسم جدهم ولمن بعدهم : عاد الأخيرة . فارم في قوله (بعاد إرم) عطف بيان لعاد ، وايذان بأنهم عاد الأولى القديمة . وقيل (إرم) بلدتهم وأرضهم التي كانوا فيها و (ذات العماد) اسم المدينة وقيل ذات البناء الرفيع (جابوا الصخر)

(٣٢) سورة لقمان الآية ٢٩
(٣٣) سورة الحج الآية ٦٥
(٣٤) سورة لقمان الآية ٣١
(٣٥) سورة الحج الآية ٦٣
(٣٦) سورة الفجر الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣

قطعوا صخر الجبال واتخذوا فيها بيوتاً ثم ذكروا أحوال ثمود والفراعنة وقصوا لهم حكايات تفتق الأذهان وتدعو الى التدبر والا تعاظ .

وفي رأينا أن موضوعات البحث هذه التي نجتزىء بها هنا عن سواها ، تمثل حقيقة لا مراء فيها تؤكد أن العرب قد تفتحت عقولهم بتلاوة القرآن الكريم وانبسطت في رحاب علوم شتى ومعارف جمة مما لايمكن أن يوصفوا معها بالأمية المطلقة أويزعم انهم لم يملكوا حظاً من العلوم إلا بالترجمة عن الأمم الاخرى والاقتباس من شعوب أجنبية .

ومما يتصل بالبحث العلمي أسس منهجه في العرض والتحليل ، فقد أشار القرآن الكريم من بينها الى خمسة أسس :ـ

أولها ـ التدبر والتأمل :

ويبدو هذا الأساس في قوله تعالى : « افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها » (٣٧)

وقوله تعالى : « افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » (٣٨)

فالآية الأولى تصدع بتدبر القرآن والتأمل فيه وينعى على الذين كلت قلوبهم وعميت بصائرهم عن ذلك .

أما الآية الثانية فتبين ـ بالاضافة الى وجوب التدبر ـ : أن هذا التدبر معيار لادراك كنه القرآن الكريم الذي هو من عند الله ، ولو كان من عند غيره لوجدوا فيه اختلافاً وتباينا كبيرين .

وبذلك فإن هذا الأساس قد عود العرب على تدبر مايبحثون فيه وتأمله سبيلاً للوصول الى نتائج يقينية وتقرير حقائق علمية .

---

(٣٧) سورة محمد الآية ٢٤

(٣٨) سورة النساء الآية ٨٢

وثانيها : التفكر واعمال العقل وشحذ التفكير :ـ

فقد بين الله تعالى في كتابه العزيز أنه يضرب الأمثال ليحمل الناس على التفكر إذ قال : « لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثالُ نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (٣٩)

كما ذكر تعالى أن الغاية من بيان الآيات هي حمل الناس على التفكر إذ قال : « ايودُّ احدُكم ان تكونَ لهُ جنّةٌ من نخيل واعناب تجري من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات واصابهُ الكبرُ ولهُ ذُريةٌ ضعفاءُ فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبيّن اللهُ لكم الآيات لعلكم تتفكرون » (٤٠)

ومن هنا فقد حث الله تعالى الناس على التفكر فقال : « أوَ لم يتفكروا في انفسهم ماخلق اللهُ السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمى وانّ كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون » (٤١)

وجاءت آيات كثيرات تسجل للمتفكرين مايبين أقدارهم وينوّه بمنزلتهم الرفيعة منها قوله تعالى « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربّنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانكَ فقنا عذاب النار » (٤٢)

وهكذا فان العربي يجد نفسه بين يدي هذه الآيات الكريمات مدركاً أن دينه القويم وكتاب هذا الدين العزيز يدعوه الى التفكر فيما يقبل عليه من شؤون دنياه وآخرته ويلزمه ان يدع الهوى والميل فيما يبحث فيه ويتدارسهُ مرسخاً بذلك أساس منهج أصيل لما ينهض به ـ عالماً كان أو متعلماً .

وثالثها : المجادلة والأخذ والرد في ضوء معايير علمية تقوّم مصادر

(٣٩) سورة الحشر الآية ٢١
(٤٠) سورة البقرة الآية ٢٦٦
(٤١) سورة الروم الآية ٨
(٤٢) سورة آل عمران الآية ١٩١

المعرفة وتجسد المناقشة :

فقد نعت آيات بينات على الذين يميلون عن هذه المعايير ولا يلتزمونها في آداب المجادلة ، من هذه الآيات قوله تعالى : « ومن الناس من يُجادلُ في الله بغير علمٍ ويتبعُ كل شيطانٍ مريد » (٤٣)

فهذه الآية الكريمة توبخ أولئك الذين يجادلون من غير علمٍ ويتبعون في مجادلاتهم الأهواء ، فيكونون كمن يقرع في الهواء ولا يحسن في القول فتيلا ومنها قوله تعالى : « ومن الناس من يُجادلُ في الله بغير علمٍ ولا هدى ولا كتابٍ منيرٍ » (٤٤)

فهذه الآية الكريمة تستوجب توفر ثلاثة مصادر للمتجادلين :—

١ اولها : العلم اليقيني .

٢ وثانيها : الهدى والبصيرة بالغاية من المجادلة .

٣ وثالثها : كتاب يوثق أطراف المجادلة ويلملم مقاصدها .

ومنها قوله تعالى : « وما نرسلُ المرسلينَ إلا مبشرين ومنذرين ويجادلُ الذين كفروا بالباطل ليدْحضوا به الحقَّ واتخذوا آياتي وما انذروا هُزوا » (٤٥)

ففي هذه الآية الكريمة يظهر بُعد جديد للمجادلة يجسده سلوك الكافرين في هذا الأساس من أسس منهج البحث فاذا هم يجادلون بالباطل ولا يتصفون بالجد العلمي والرزانة العقلية ، وانما يتخذون من الباطل والسخرية وسيلةً لدحض الحق الذي لايستطيعون منهُ تمكناً ورداً .

واذ دحض القرآن الكريم هذه الحالات من المجادلة وأبطل تلك الألوان من المناقشة بيَّن — على الطرف الآخر — آداب المجادلة الحقَّ وأثبت تقاليدها الأصيلة فأورد قولهُ تعالى : « ادْعُ الى سبيلِ ربك بالحكمة والموعظة

(٤٣) سورة الحج الآية ٣
(٤٤) سورة الحج الآية ٨
(٤٥) سورة الكهف الآية ٥٦

الحسنة وجادلهم بالتي هي احسنُ إنَّ ربكَ هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » (٤٦) .

وقوله تعالى : « ولا تُجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هي احسنُ » (٤٧) ففي الآية الاولى تفصيل لآداب المجادلة بالنص على ثلاثة أركان :ـ

اولها: الحكمة ، وهي المقالة المحكمة الصحيحة والدليل الموضح للحق المزيلة للشبهة .

وثانيها: الموعظة الحسنة ، وهي التي لايخفى على الذين تجادلهم أنك تناصحهم بها وتقصد مايتفعهم فيها .

وثالثها: المجادلة بالتي هي احسن ، وهي احسن طرق المجادلةمن الرفق واللين ، من غير فظاظة ولا تعنيف .

أما الآية الثانية فهي تنهى عن مجادلة الخصوم بغير التي هي احسن وهي مقابلة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم ، والسوء بالأناة . وبذلك فإن العربي قد تعود بتلاوة آي الذكر الحكيم على أساس المجادلة في منهج البحث وتمرس بأساليبها ، وتمكن من إنجاز بحوثه بأناة وترو ومالَ عن التسرع والهوى .

ورابعها: المحاججة والاستدلال ودحض الحجة بالحجة ونقض الدعوى بالدليل والبينة .

وقد بسط القرآن الكريم هذا الأساس ووضح كيفيتهُ وأورد مصادرهُ ، فأردفه بالعلم في قوله تعالى : « فمن حاجّكَ فيه من بعدِ ماجاءَكَ من العلم فقُلْ تعالوْا ندْعُ ابناءَنا وابناءكم ونساءَنا ونساءَكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهلْ فنجعل لعنةَ الله على الكاذبين » (٤٨) ومعنى هذه الآية ان المجادلة تنقطع

(٤٦) سورة النحل الآية ١٢٥
(٤٧) سورة العنكبوت الآية ٤٦
(٤٨) سورة آل عمران الآية ٦١

أسبابها وتزول دواعيها في موضوع البحث إذا كان قد جاء فيه يقين ، وهو البينات الموجبة للعلم ، فلا ينبغي أن تدور إلا في ضوء الحجة والبينة والبرهان . ومن هنا فإن توثيق مصادر البحث ضرورة علمية قبل المجادلة ، لذلك فان القرآن الكريم أنكر أن تستعر المجادلة بعد التوثيق ويشمر المجادلون عن سواعدهم أثر توفر مايقنعهم بعدم جدوى مجادلتهم ، وذلك في قوله تعالى : « ياأهلَ الكتاب لم تُحاجّونَ في إبراهيم وما أُنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون » (٤٩)

فهولاء القوم الذين انكر عليهم القرآن الكريم المجادلة كانوا قد زعموا أن ابراهيم كان منهم — وجادلوا رسولَ الله (ص) والمؤمنين فيه فقيل لهم : ان اليهودية انما حدثت بعد نزول التوراة ، والنصرانية بعد نزول الانجيل ، وبين ابراهيم وموسى ألف سنة ، وبينهُ وبين عيسى ألفان ، فكيف يكون ابراهيم على دين لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة ؟ (٥٠)

ومن هنا فإن القرآن الكريم قد جعل العلم صنواً للمحاججة في مواضع ، منها قولهُ تعالى : « هاأنتم هؤلاء حاججتُم فيما لكم به علمٌ فلمَ تُحاجّونَ فيما ليس لكم به علمٌ واللهُ يعلمُ وانتم لاتعلمون » (٥١)

كما أنه قد أدار مُصْطَلَحَيْنِ في معرض المحاججة ومضمارها وبيان أدواتها وتمهيد سُبُلها :—

أحدهما : الحجة كما في قوله تعالى : « والذين يُحاجّون في الله من بعد مااستُجيب لهُ حُجتُهمْ داحضةٌ عند ربهم وعليهم غضبٌ ولهم عذاب شديدٌ » (٥٢)

(٤٩) سورة آل عمران الآية ٦٥
(٥٠) راجع الكشاف جـ١ / ٣٧١
(٥١) سورة آل عمران الآية ٦٦
(٥٢) سورة الشورى الآية ١٦

ومصطلح الحجة في هذه الآية الكريمة يقتضي أن تنهض المحاججة لغاية أما أن يشتجر أوارها وتدور أسبابها من غير غايةٍ فهذا مالا ينبغي أن يتم ويحدث .

ومن هنا فقد بيّنَ القرآن الكريم غاية الحجة بأنها الاقناع وقطع دابر العناد واغلاق الباب في وجوه المشككين والمعاندين ، ويظهر هذا في قوله تعالى : « ومن حيثُ خرجت فولِّ وجهكَ شطر المسجدِ الحرام وحيث ماكنتم فولوا وجوهكُمْ شطره لئلا يكونُ للناسِ عليكم حُجّة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوْهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون» (٥٣) وعليه فإن الحجة ترفع مكانة من يأتزر بها ويستند اليها كما في قوله تعالى : حكاية عن سيدنا ابراهيم « وتلك حُجّتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفعُ درجات من نشاءُ ان ربك حكيم عليم » (٥٤)

كما أنها ينبغي أن تكون مقنعة يطمئن اليها القلب ويرضى بها العقل وألا تكون واهية تلقى على علاتها ، وتبدو مميزات الحجة هذه في سياق قوله تعالى : « واذا تُتلى عليهم آياتُنا بيّناتٍ ماكان حُجّتهم إلا قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » (٥٥)

ويبدو أن المفسرين وسواهم من الذين يتلون القرآن الكريم قد أدركوا مميزات الحجة الحقة التي رسختها آي الذكر الحكيم ، فتساءلوا لم سمّى قولهم حجة في هذه الآية وليس بحجةٍ ؟

ثم أجابوا قائلين : لأنهم أدلوا به كما يدلي المحج بحجتهِ وساقوهُ مساقها فسميت حجة على سبيل التهكم ، أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة أو لأنه في اسلوب قوله :

(٥٣) سورة البقرة الآية ١٥٠
(٥٤) سورة الانعام الآية ٨٣
(٥٥) سورة الجاثية الآية ٢٥

« تحيةُ بينهمْ ضربٌ وجيعٌ » (٥٦) .

كأنهُ قيل : ماكان حجتهم إلا ماليس بحجة . والمراد : نفى أن تكون لهم حجة البتة .

وثاني المصطلحين : (البرهان) ، وهو مصطلح يطالب القرآن الكريم بتوفره في معرض سياق خبر يقتضي التصديق كقوله تعالى : « وقالوا لن يدخُلَ الجنةَ إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيُّهُم قلْ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (٥٧)

فهذه الآية الكريمة تقدم قول جماعة خبراً يحتمل الصدق والكذب لذلك قررت ؛ أن هلموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة (إن كنتم صادقين) في دعواكم إذ أن كل قولٍ لادليلَ عليه باطل غير ثابت .

ثم إن القرآن الكريم يبين طبيعة البرهان ويفصل أضربه لما لهُ من أهمية في مضمار المحاججة كقوله تعالى : « ام اتخذوا من دونه آلهةً قلْ هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبْلي بل أكثرهُمْ لايعلمون الحقَّ فهم معرضون » (٥٨)

فهذه الآية الكريمة تبين أنه قد اتخذوا من دون الله آلهة استفظاعاً لشأنهم واستعظاماً لكفرهم اي : وصفتم الله تعالى بأن لهُ شريكاً ، فهاتوا برهانكم على ذلك : إما من جهة العقل ، واما من جهة الوحي ، فانكم لاتجدون كتاباً

---

(٥٦) الشاهد لعمرو بن معد يكرب وتمامه :

و خيل قد دلفت لها بخيلي تحية بينهم ضرب و جيع

وخيل : أي وأصحاب خيل قد تقدمت لها بمثلها . والتحية :

الدعاء بالحياة ، فأخبر عنها بالضرب الوجيع على سبيل التهكم وضمير (بينهم) للخيل بمعنى الجيش . حاشية الكشاف ج ١ /٦٠

(٥٧) سورة البقرة الآية ١١١

(٥٨) سورة الانبياء الآية ٢٤

من كتب الاولين إلا وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعوٌ اليه ، والإشراك به منهي عنه متوعد عليه » . (٥٩)

كما أنه يصور مايترتب على تقديم البرهان أو عدم تقديمه من نتائج ملزمة كقوله تعالى : « ونزعنا من كلِّ أمةٍ شهيداً فقلنا هاتوا بُرهانكم فعلموا انّ الحقّ لله وضلّ عنهم ماكانوا يفترون » . (٦٠)

فمعنى هذه الآية (ونزعنا) وأخرجنا (من كل أمة شهيداً) وهو نبيهم : لأن أنبياء الأمم شهداء عليهم ، يشهدون بما كانوا عليه (فقلنا) للأمة (هاتوا برهانكم) فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول (فعلموا) حينئذ (أن الحق لله) ولرسوله ، لالهم ولشياطينهم (وضل عنهم) وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع (ماكانوا يفترون) من الكذب والباطل . (٦١)

فالبرهان في هذه الآية الكريمة ازم أولئك المدعين ماكانوا فيه وصور حالهم بعد أن جوبهوا بطلبه منهم .

ورابعها : الشك والتجربة سبيلين لاثبات الحقيقة :ـ

ويتجلى هذا الاساس في قوله تعالى : حكاية عن سيدنا ابراهيم « وإذ قال ابراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ اربعةً من الطير فصُرْهنّ اليك ثم اجعل على كل جبلٍ منهن جُزءاً ثم ادْعُهُنّ يأتينكَ سعياً واعلم ان الله عزيز حكيم » (٦٢)

وقد فسر الزمخشري هذه الآية الكريمة في ضوء عقيدته الاعتزالية فقال : (أرني) بصّرني ، فان قلت : كيف قال له (أو لم تؤمن) وقد علم أنه أثبت الناس ايماناً ؟ قلت : ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة

(٥٩) ينظر الكشاف جـ١ / ١١١
(٦٠) سورة القصص الآية ٧٥
(٦١) راجع الكشاف جـ ١ / ٤٢٩
(٦٢) سورة البقرة الآية ٢٦٠

للسامعين و (بلى) ايجاب لما بعد النفي ، معناه بلى آمنت (ولكن ليطمئن قلبي) ليزيد سكوناً وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال وتظاهر الادلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين ، ولأن علم الاستدلال يجوز معهُ التشكيك بخلاف العلم الضروري ، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لامجال فيه للتشكيك . فإن قلت : بم تعلقت اللام في (ليطمئن) ؟ قلت : بمحذوف تقديره : ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب (فخذ اربعة من الطير) قيل طاوساً وديكاً وغراباً وحمامة . (فصرهن إليك) بمعنى اضممهن (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً) يريد : ثم جزّئهن وفرق أجزاءهن على الجبال . والمعنى : على كل جبلٍ من الجبال التي بحضرتك وفي أرضك ، (ثم ادعهن) وقل لهن : تعالين باذن الله (يأتينك سعياً) ساعيات مسرعات في طيرانهن أو في مشيهن على أرجلهن : فإن قلت : مامعنى أمره بضمها الى نفسه بعد أن يأخذها ؟ قلت : ليتأملها ويعرف أشكالها وهيئاتها وحلاها لئلا تلتبس عليه بعد الاحياء ولايتوهم أنها غير تلك ولذلك قال : يأتينك سعياً (٦٣) وقد خالف مفسرون آخرون الزمخشري فيما أداره من عبارة الشك وتوجيه بعض كلم الآية : فقالوا : أما سؤال الخليل عليه السلام بقوله له « كيف تحيي الموتى » فليس عن شك والعياذ بالله في قدرة الله على الاحياء ، ولكنه سؤال عن كيفية الاحياء ، ولايشترط في الايمان الاحاطة بصورتها ، فانما هي طلب علم مالا يتوقف الايمان على علمه ، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف ، وموضوعها السؤال عن الحال ، ونظير هذا السؤال أن يقول القائل : كيف يحكم زيد في الناس ؟ فهو لايشك أنه يحكم فيهم ، ولكنه سأل عن كيفية حكمه لاثبوته ، واو كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فيطرق الى ابراهيم شكاً من هذه الآية . وقد قطع النبي عليه الصلاة والسلام دابر هذا الوهم بقوله : « نحن أحق بالشك من

(٦٣) راجع الكشاف ج ١ / ٣٠٨

ابراهيم » أي ونحن لم نشك ، فلأن لايشك ابراهيم أحرى وأولى فان قلت : إذا كان السؤال مصروفاً الى الكيفية التي لايضر عدم تصورها ومشاهدتها بالايمان ولاتخل به ، فما موقع قوله تعالى : « أو لم تؤمن » ؟ قلت : قد وقعت لبعض الحذاق فيه على لطيفة وهي أن هذه الصيغة تستعمل ظاهراً في السؤال عن الكيفية كما مر ، وقد تستعمل في الاستعجاز مثله : أن يدّعي مدع أنه يحمل ثقلاً من الاثقال وأنت جازم بعجزه عن حمله ، فتقول له أرني كيف تحمل هذا ، فلما كانت هذهالصيغة قد يعرض لها هذا الاستعمال الذي أحاط علم الله تعالى بأن ابراهيم مبرأ منه ، أراد بقوله : (أو لم تؤمن) أن ينطق ابراهيم بقوله : بلى آمنت ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظي في العبارة الأولى : ليكون ايمانهُ مخلصاً نص عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهماً لايلحقه فيه شك فإن قلت : قد تبين لي وجه الربط بين الكلام على التقدير المبين،فما موقع قول ابراهيم (ولكن ليطمئن قلبي) ؟ وذلك يشعر ظاهراً بأنه كان عند السؤال فاقداً للطمأنينة قلت : معناه ولكن ليزول عن قلبي الفكر في كيفية الحياة ، لأني إذا شاهدتها سكن قلبي عن الجولان في كيفياتها المتخيلة ، وتعينت عندي بالتصوير المشاهد وجاءت الآية مطابقة لسؤاله ، لأنه شاهد صورة حياة الموتى ، تقديره الذي يحيي ويميت » (٦٤) ولعلنا إذا ماأردنا أن نحدد موقفاً علمياً من هذه المسألة الخلافية بين أولئك المفسرين في تأويل هاتيك الآيات البينات ، ينبغي أن نستند الى الفكر العربي الموحد ، فنستقبل ظاهر الآيات ولا نحملها أكثر مما تتحمل نصوصها وأكثر مما يتبادر الى الذهن من معانيها .

وفي يقيننا : ان العربي في تلاوته هاتيك الآيات يستخلص أربع حقائق:

اولاها : أن سيدنا ابراهيم (ع) قد التمس أن يريه الله تعالى كيفية احياء

---

(٦٤) راجع حاشية المصدر السابق ج ١ / ٣٠٨

الموتى ، وقد علّمت هذه الحقيقة العربي منذ أقدم العصور أن يعتمد على المشاهدة والتجربة في إدراك كنه ماليس له به علم من الامور العظيمة ولا يكتفي فيها بالنظر المجرد والسماع المروي .

وثانيتها: ان الله تعالى قد طلب الى سيدنا ابراهيم في صيغة سؤال أن يبين ايمانه فيما التمس : وهذه الحقيقة تبين في ظاهرها ماكان عليه سيدنا ابراهيم من الايمان الحق بالله تعالى مع الكشف عن طبيعة ذلك الالتماس في مضمار العلوم والمعارف المكتسبة ، ومن هنا فإن السؤال عن ايمان سيدنا ابراهيم في هذا المقام يعطي التماسه صبغة علمية ويدرجه بين وسائل تعلم الانسان معلومات اضافية عن طريق المشاهدة والمعاينة وعن سبيل التجربة والاختبار .

وقد فتحت هذه الحقيقة على العربي قديماً أبواب العلم بالكد والمعاناة والطلب والسعي .

وثالثتها: أن سيدنا ابراهيم أكد إيمانه مستدركاً أنه قد أراد بالتماسه اطمئنان القلب في مسألة كيفية احياء الموتى لأنها تخص خبرته المكتسبة وتتعلق بمعلوماته التي لايستطيع أن يوسع آفاقها إلا بالمشاهدة والمعاينة والكسب .

وقد رسخت هذه الحقيقة في عقل العربي حقه في أن يجرب ويختبر مايتناهى اليه من خبر او علم ويعرضه على محك التجربة والاختبار .

ورابعتها : ان الله تعالى قد حول الموقف الذي كان فيه سيدنا ابراهيم الى مختبر للتعليم ، وقد كشفت هذه الحقيقة للعربي منذ تلاوة القرآن الكريم عن المختبر وميدان التجربة وسيلة مثلى يسبر بها أغوار العلم ويدرك كنه المعرفة.

وفي يقيننا أيضاً أن العربي في ايامنا هذه حين يلم بهذه الحقيقة يتذكر نظرية رينه ديكارت في منهج البحث ثم يدرك أن أساس الشك في هذه النظرية قد توفر قبل اربعة عشر قرناً بشكل أو بآخر بين أسس منهج البحث العلمي في التراث العربي .

فالمعروف أن رينه ديكارت الملقب بأبي الفلسفة الحديثة قد أخضع افكاره جميعها الى الفحص الممعن مستنداً الى الشك الذي يوصل الى اليقين: فقد شك في التقليد والتربية وسيلة لكسب العادات والمعرفة ، وشك في الاحساسات التي تزين له هذه المعلومة أو تلك ، وشك في جسمه ووجوده وشك في الحقائق العلمية .

شك ديكارت ، ثم عاد فسلم بجميع الأفكار ، التيشك فيها ، فهل يكون قد شك حقاً ؟ وماهي قيمة هذا الشك ؟

ان شك ديكارت ، لايمس غير الطرق ، التي نهجها الفلاسفة لادراك الحقيقة ، أما الحقيقة عينها ، فقد ظلت في مأمن من الشك . لذا سمي بالشك المنهجي الذي لايشك رغبة في الشك للشك ، لأنهُ عمل يدور على نفسه ، بل يشك ليخرج من ديجور المجهول ، الى وضح المعلوم ، وهذا يعني ، ان ديكارت لم يشك فعلاً . لقد افترض الشك فقط ، لأنه آمن قلبياً بوجود الحقيقة ، وبقدرة الانسان على أن يدرك الحقيقة والا ماهي الفائدة من وضع منهج يسير عليه ؟

ان الشك في الحقيقة يهدم الحقيقة ، ولايترك للانسان مجالاً للبحثعنها ، ومتى انقطع الانسان عن الحقيقة انقطاعاً مبرماً ، تهافت هو ايضاً في قرارة ذاته ، وكان شكه كينونياً هداماً ، أما الشك في مايرتاح اليه الانسان من الاساليب التي يعتقدها ناجحة لادراك الحقيقة فانه لايعطل كينونة الحقيقة ، بل يدعوالى الحذر ، والامعان ، والتريث ، ليتيقن مما يسلم به ، هذا الشك هو شك نفسي بنّاء . هو الحقيقة قد أغمت سماؤها ، بفعل من الانسان لا منها، فكان على الانسان أن يشك في ذاته ، لا فيها ، ليقوم مااعوج من ذاته . ولهذا كان الشك الديكارتي ذا قيمتين قيمة تربوية ، وقيمة اخلاقية . تقوم القيمة التربوية على أن هذا الشك يروض الانسان ، فيطوعه ، ويعلمه

كيف يجب أن يسير في الطريق الحق . ان الشك مصداق نسترشد به ، لبلوغ اليقين الثابت . أما قيمته الاخلاقية ، فهي أبعد وارفع ، لأن الانسان يعي ولا يتبناها على حساب غيره . (٦٥)

ومهما يكن فإن تذكر نظرية ديكارت في منهج الشك باستنباط تلك الحقائق من آي الذكر الحكيم لايعني أي ضرب من الموازنة المباشرة بين القرآن الكريم وبين أي علم من العلوم الحديثة ، ذلك لأننا قد ثبتنا هذا المبدأ في مستهل دراستنا هذه .

بيد أننا نريد بهذا التذكر تأكيد خصوبة تراثنا الاسلامي وتنوع مجالاته فإذا هو تراث يشدنا اليه في مواجهة اعاصير الغزو الثقافي الأجنبي ويمدنا بما نحتاج اليه محفزاً ايانا على التجديد الأصيل والابتكار القومي والانساني .

وخامسها : نقد النصوص وتحقيقها :—

ويضطرد هذا الأساس من أسس منهج البحث في مظاهر ابرزها : اقتران النص بالعلم كقوله تعالى : «وعلّم آدم الاسماء كلّها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لاعلمَ لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يآآدمُ انبئهم باسمائهم فلما أنبأهم باسمائهم قال ألم أقل لكم إني اعلمُ غيب السموات والأرض واعلمُ ماتبدونَ وماكنتم تكتمون » (٦٦)

ففي هذه الآيات الكريمات يدير القرآن الكريم مصطلح العلم وبعضاً من مشتقاته ليوثق ماتعلمه آدم (ع) وماتستطيع الملائكة النهوض به في معرض اختبارهم ، مما يدل ذلك على أن ذكر الاسماء وانباءها من العلم الذي هو حدث موثق قائم على التفكير والتحليل والاستنتاج . وعليه ففي آية اخرى

(٦٥) راجع رينه ديكارت ابو الفلسفة الحديثة بقلم : الدكتور كمال يوسف الحاج دار الحياة بيروت ايار ١٩٥٤ (ص ٨٩)

(٦٦) سورة البقرة الآيات ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣

يقول الله تعالى : « ويعبدون من دون الله مالا يضرّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قلْ اتنبئون الله بما لايعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون » (٦٧)

فهاهنا ينتقد الذكر الحكيم مقالة الكافرين ويتهكم منهم إذ لايقترن إنباؤهم بعلمه ، فمعنى قوله تعالى : « اتنبئون الله بما لايعلم » على مايذكر الزمخشري (أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده ، وهو انباء بما ليس بالمعلوم لله ، واذا لم يكن معلوماً له وهو العالم الذات المحيط بجميع المعلومات لم يكن شيئاً لأن الشيْ مايعلم ويخبر عنه ، فكان خبراً ليس له مخبر عنه . فإن قلت : كيف انبأوا الله بذلك ؟ قلت : هو تهكم بهم ومما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأن الذي انبأوا به باطل غير منطو تحت الصحة ، فكأنهم يخبرونه بشيْ لايتعلق بـــه علمه كما يخبر الرجل بما لايعلمه) (٦٨)

إذن فالإنباء بأي نص وروايته والاخبار به ينبغي أن يقترن بعلم المنبئ ومعرفة الراوي والمخبر ، كما أن المتلقي لهذا النص لابدّ أن يكون على علم به حتى يتلقى النص بيقين واطمئنان .

لذلك فإن القرآن الكريم قد أشار في آيات بينات منه الى ذكر مصدر النص ، ومن هذه الآيات :

قوله تعالى : « أعندهُ علمُ الغيب فهو يرى ، أم لم يُنبّأ بما في صحف موسى ، وابراهيمَ الذي وفّى » (٦٩)

واذا لم يذكر القرآن الكريم مصدر النص التقينا باستفسار عنه كما في قوله تعالى : « وإذا أسرّ النبي الى بعض أزواجه حديثاً فلما نبّأت به واظهرهُ اللهُ

(٦٧) سورة يونس الآية ١٨
(٦٨) راجع الكشاف ج ٢ / ٣٣٦
(٦٩) سورة النجم الآيات ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧

عليه عرَّف بعضه وأعرض عن بعضٍ فلما أنبأها به قالت من أنبأكَ هذا قال نبّأني العليم الخبير » (٧٠)

ففي هذه الآية الكريمة تستفسر احدى أزواج النبي (ص) عن مصدر إنبائه الحديث ، فيذكر لها المصدر بأنه العليم الخبير .

وشرط مصدر النص في القرآن الكريم أن يكون موثقاً، لذلك فهو يرتبط بالحق أو بما اليه من المصطلحات التي تبين طبيعة المصدر ، كما في قوله تعالى : « نحنُ نقصُ عليك نبأهم بالحق إنهم فتيةٌ آمنوا بربهم وزدناهم هدى » (٧١)

فهذه الآية الكريمة قبل أن تروي حكاية أولئك الفتية تخبر مقررة : أنه « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » فتوثق بذلك مصدر الحكاية وتؤكد طبيعتها العلمية . واذا لم يحصل شئ من هذا الباب ولم يوثق النص جرى استفسار عن طبيعته ثم اشفع بجواب هذا الاستفسار مؤكداً بالقسم عليه ، كما في قوله تعالى: « ويستنبؤنك أحقٌ هوقلْ إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين» (٧٢)

ففي هذه الآية الكريمة يستفسر الكافرون عن العذاب بهذا اللون أو ذاك من الاستفسار ، فيأمر الله تعالى نبيه أن يقسم على أن ذلك حقٌ ، ثم يبين بجملة خبرية مؤكدة أن ذلك العذاب لن يفوتهم وانما يحيق بهم .

ويرتبط النبأ في القرآن الكريم بالمخبر غالباً ، إذ لايأتي فيه الإنباء الا وقد أردف باسم من الاسماء التي تؤدي عمن ينهض به ؛ مما يستطيع الباحث أن يستنتج مطمئناً : أن هذا الكتاب العزيز قد نبّه منذ أقدم العصور الى عنصري النص اللذين هما السند والمتن .

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى : « إن تدْعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشِركِكم ولا يُنبّئك مثل

(٧٠) سورة التحريم الآية ٣
(٧١) سورة الكهف الآية ١٣
(٧٢) سورة يونس الآية ٥٣

خبير » (٧٣)

ففي هذه الآية الكريمة التي هي إنباء عن الاصنام نلتقي بعبارة « ولا ينبئك مثل خبير » التي معناها : ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به . ويريد : أن الخبير بالأمر وحده . هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به .

ولعلنا نلاحظ من هذا المعنى أن القرآن الكريم قد نوّه أيضاً بقدرة السند الذي يوثق بانبائه وإخباره ، إذ نص على صفته التي هي الخبرة والاطلاع وسواها من الصفات التي يجمعها مصطلح الخبير .

واذا لم تتوفر في السند الذي يروي الخبر صفة أو أخرى من صفات العدول وجب التبين والتوثق مما يرويه وينقله ، ويتجلّى هذا في قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على مافعلتم نادمين » (٧٤)

وترجع كتب اسباب نزول هذه الآية الى حدث تأريخي بعينه ، بيد أن الزمخشري قد ذكر أنه : « في تنكير الفاسق والنبأ : شياع في الفساق والأنباء ، كأنه قال : أي فاسق جاءكم بأيّ نبأ فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ، ولا تعتمدوا قول الفاسق لأن من لايتحامى جنس الفسوق لايتحامى الكذب الذي هو نوع منه » (٧٤)

ومذهب الزمخشري هذا حق لامراء فيه ، ذلك لأن القرآن الكريم كتاب عزيز لكل زمان ومكان ، فهو من أجل هذا يعمم مااقتضت الحكمةالا لهية التعميم . وقد أعانتنا هذه الميزة القرآنية على أن نوجه هذه الآية الكريمة وماقبلها وجهة

(٧٣) سورة فاطر الآية ١٤
(٧٤) سورة الحجرات الآية ٦
(٧٥) راجع الكشاف ج ٤ / ٣٦٠

نستنتج منها خصائص أساس نقد النصوص وتحقيقها من بين أسس منهج البحث العلمي .

ولما كان هذا المنهج عريقاً في التراث العربي فإن الباحث المنصف يستغرب من المستشرق روزنتال إذ يقول :

« قد يكون هذا الخلو الظاهر من أساليب العلم المنتظمة دليلاً على نقص فعلي يتصف به البحث العلمي الاسلامي . نعم إن الأدب العربي يعكس لنا بعض المحاولات التي كانت تبذل في سبيل ايجاد اسلوب منظم في البحث العلمي ولكنها محاولات لم تتعدد ، وذلك ، ربما لانعدام الوسائل التقنية التي لايجدي دونها أي اسلوب منظم نفعاً مهما بذل المؤلف من جهد في هذا السبيل . إذ أي نفع يرتجى من وضع نظام صارم وقواعد مفصلة لتحقيق نص مخطوطة مابمعارضتها بجميع المخطوطات الاخرى اذا لم يكن لدى محقق النص سوى مخطوطة واحدة في متناوله ؟ وفضلاً عن هذا فإن حالة المخطوطات الزرية وشكلها واحجامها لم تكن لتيسر للمحقق في النصوص ضبط وتسجيل الاختلافات والفروقات التي يتوخى جمعها من معارضة مخطوطة باخرى . كذلك أي نفع يرتجيه المحقق من وضع قوانين صارمة ثابتة لحكم فيما يجب قبوله وفيما يجب رفضه طالما ليس لديه وسيلة للتثبت من صحة رواية تبدو قريبة » (٧٦)

وبعد هذا يمضي المستشرق روزنتال فيعلل ماشخصه في ظنه من قصور منهج البحث وتحقيق النصوص الاسلامي .

ويقول : « وعلى كلٍ ، فإن مانشأ في الشرق من تنظيم الاساليب وان قلَّ فقد انحصر على العموم في حقول معينة من حقول المعرفة .

أما في الغرب فاننا نلاحظ اتجاهاً نحو اتباع اسلوب في التحقيق العلمي ذي قوانين صارمة يتناول جميع حقول النشاط الفكري ، وهو اتجاه جذوره

(٧٦) مناهج العلماء والمسلمين في البحث العلمي ص ١٠ - ١١

متأصلة في العصور الوسطى .

والسبب في ذلك هو أن ماتحدر الى الغربيين من بقايا حضاراتهم القديمة ليس سوى نبذ قليلة ، وهذه القلة جعلت العالم الغربي يُعنى بتراثه الثقافي الضئيل عناية المقل المقتصد ، أي بطريقة منتظمة » (٧٧)

وواضح أن المستشرق روزنتال يستند الى فرضيات شكلية فيما يتهم به العرب من قصور في منهج البحث وتحقيق النصوص كما يسقط من حسابه ماكان للقرآن الكريم من أثر بالغ في صياغة الفكر العربي الاسلامي وقيادته في شؤون الحيلة العلمية والثقافية والحضارية ؛ ومن هنا رأيناه يلتجيء الى التساؤل فيما قرر ، ويتلمس المظاهر المادية عللاً لما يقرره متناسياً عراقة الثقافة العربية وامتداد جذورها في أيامنا هذه لتستمد من منابت القرآن الكريم وماقبل القرآن الكريم من حقول المعرفة الخصبة وأياً كان مايدعو اليه روزنتال والذين شايعوه فنحن نرى أنه إذا كان للغرب تراثه الاغريقي فإن للعرب تراثهم الاسلامي الذي تنهض أسسه في ضوء القرآن الكريم الذي شددنا به أزرنا في هذه الدراسة المتواضعة التي نرجو أن تكون قد تمخضت عن نتائج .

احداها : أن الباحثين لم يكونوا على بينة من القرآن الكريم ، ولم يكونوا في رحاب آياته البينات حين أغفلوا تملك العرب لزمام منهج البحث قديماً والاعتماد على اسسه أصالةً ، وزعموا : أن الفكر العربي لم يبدع في الامور المعنوية العامة .

الثانية: أن العرب كانوا على مستوى فكري متطور ، وأن فكرهم قد مارس ألواناً من النشاط العقلي قبل ان يستقبلوا القرآن الكريم بين ظهرانيهم ويتخذوا منه هذا الموقف أو ذاك .

الثالثة : أن آيات كريمات عديدة قد صاغت الفكر العربي بموضوعاتها العلمية وأساليبها في المجادلة والمحاججة وقادته في ميادين البحث العلمي ،

(٧٧) المصدر السابق ص ١١

فملكته منهجاً متميزاً في دراسة شتى أمور الحياة ومختلف مناحي الثقافة والحضارة .

الرابعة: أن منهج البحث العلمي لدى العرب قد ترسخت أسسه في ضوء القرآن الكريم قبل أن تنعقد أية صلة مباشرة بين هذه الأمة وبين سواها من الأمم عن طريق الترجمة والمخالطة الحاسمة وسواها من الطرق التي يرجع اليها المستشرقون التطور الفكري عند العرب تعصباً لغير الحق وميلاً عن جادة الصواب .

الخامسة: أن منهج البحث العلمي قد تكاملت أسسه في التراث العربي واستوى علامة مميزة للعقلية العربية منذ نزول القرآن الكريم ، مما ينبغي أن يبعث هذا المنهج في أيامنا هذه ويمتد صلة وثقى بين الفكر العربي المعاصر وبين جذوره التأريخية العريقة دفعاً للغزو الثقافي الأجنبي ، وتفتُّحاً على الثقافة الانسانية بشخصية فكرية متكاملة ووعي تام في عملية الأخذ والعطاء بين الحضارات .